الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

---

١ — أيام الشباب ١٥٦٤ — ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالا للبحث ، مايعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخلفاته ودراستها لثلاثة قرون ، فإنه يهمنا أن نقيس مانعرف عنه — وهناك شيء كثير يطرح جانبا لأنه غير جدير بالمناقشة ، وهناك الشكوك التي تثار حول تأليفه لكل الروايات التي نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أباحت اليزابث من الحرية فى هجاء الكلمات أكثر مما أباحت فى حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة طرق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعا لمزاجه وسرعته فى الكتابة . وهكذا كتب المعاصرون مارلو ، مارلين ، مورلى ، وغيرها ، أما توقيعات شكسبير الستة الباقية فهى كما تقرأ : Willm Shaksp ، Willjam Shakspeare — Willm Shakspere — Wm Shakspe - William Shakespe وهو الهجاء السائد الآن ، وليس له مايؤيده فى مخطوطاته ، والتوقيعات الثلاثة الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه مارى آردن . من أسرة قديمة فى ووروكشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن مستأجر أرض والدها ، صداقا ضخما نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين فى ستراتفورد على نهر الآفون ، واشترى دارين ، وخدم بلده ذائقاً للجعة . ومسئولا عن الأمن ، وعضوا فى مجلس المدينة ، ومساعدا لمأمور التنفيذ ، وأحسن إلى الفقراء

بسخاء وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده. وأقيمت عليه دعوى من أجل ثلاثين جنيهاً، وأخفق فى دفع التهمة عنه، وصدر أمر بالقبض عليه . وفى ١٥٨٠، ولأسباب مجهولة، مثل أمام المحكمة ليقدم ضمانا بعدم الإخلال بالأمن . وفى ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لايحضرون إلى الكنيسة شهريا طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة الجلالة » . واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكيا « عاصيا » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه. واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقى فى شارع هنلى منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشيه فى ستراتفورد تعميد وليم فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤. ودون نيقولا رو — وهو أول من كتب سيرة حياته — فى ١٧٠٩ ، اسطورة ستراتفورد التى يصدقها الجميع الآن ، وهى أن والد ربى ابنه . . . لبعض الوقت فى مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة ابنه له فى موطنه . . . أجبرتاه على سحب ابنه من المدرسة (١) . وفى المرثية التى ظهرت فى مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذى مات « لقد تعلمت قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظلوا على حالهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم .) ولكنه تعلم من اللاتينية مايكفى لملء رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجداً نشيطا ، مجهولا ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حوالى ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيرا ما كان سيىء الحظ فى سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسى الذى كان غالبا مايجلده بالسوط ، وأحيانا يسجنه(٢) » . وفى ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم فى سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاثاواى ، وكانت هى فى نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها (٣) . وفى مايو ١٥٨٣ — أى بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لهما طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمين عمدا تحت اسم هامنت وجوديث فى ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوالى نهاية هذا العام هجرشكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامى ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعثر عليه ممثلا فى لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تحط من قدره . وفى ٣ سبتمبر ١٥٩٢ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يزحزحهم عن مكانهم فى مسرح لندن " غراب ناشىء يزدان بريشنا نحن ، وأنه فى جرأة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين ؛ (وفى هذا تهجم لاذع على بيت فى مسرحية هنرى السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطنطن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبما أنه مستخدم يؤدى كل المهام ، ففى تصوره أنه أحسن ممثل فى أى بلد(٤) " . وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات» من ذكاء جرين — أعدها هنرى شاتل ، الذى قدم فى رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا مارلو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين .

إننى لم تكن لى صلة بأى من هذين الرجلين المعتدين ، ولا أعبأ قط بأننى لن تكون لى صلة بأحدهما . أما الآخر ، فانى آسف لأنى رأيت بنفسى أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كما لم يكن هو أقل امتيازاً فى المهنة التى يدعيها ، وفوق ذلك فان مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التى تنم على أمانته وكياسته فى الكتابة التى تؤيد فنه(٥) .

ويبدو أنه ليس ثمة شك فى أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد فى ستراتفورد ممثلا وكاتباً مسرحياً فى العاصمة . ويروى دودال (١٦٩٣) ورو (١٧٠٩) أنه « استقبل فى المسرح كخادم فى مرتبة وضيعة جداً(٦) » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهف على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شىء سوى الجلال والعظمة(٧) " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جاعلا من نفسه متعة وبهجة للنظر (٨) . ثم مثل دور " آدم الشفوق " فى رواية

" على هواك " والشبح فى هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين فى رواية جونسون Everyman in His Humour أو فى رواية جونسون Sejanus (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما " الممثلان المأساويان الرئيسيان(٩) " . وفى أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً فى فرقة تشمبرلين للممثلين . ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً ، بل لكونه ممثلا ومساهماً فى فرقة مسرحية .

ومهما يكن من أمر فانه فى ١٥٩١ كان يكتب الروايات . ويبدو أله بدأ " طبيباً للرواية " (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة . وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك فى التأليف . وإن الأجزاء الثلاثة من " هنرى السادس " (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك . وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام ، حتى بلغت جملتها ستا وثلاثين أو ثمانى وثلاثين رواية . وإن عدة من رواياته الأولى مثل Two Gentlemen of Venoma, Acomedy of Errors(١٥٩٤)، Loves Labours Lost (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الان . وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضنى . ولكن الصعود كان سريعاً . وأوحت إليه رواية مارلو " إدوارد الثانى " أن يلتمس فى التاريخ الإنجليزى أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية " ريتشارد الثانى " (١٥٩٥) رواية مارلو . أما رواية " ريتشارد الثالث " (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها . ووقع إلى حد ما فى خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحدب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل ، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعمق التحليل وقوة الإحساس وومضات من العبارة المشرقة . وسرعان ما أصبحت عبارة " جواد! جواد! مملكتى مقابل جواد! " ، ذائعة على كل الألسنة فى لندن .

ثم فترت العبقرية فى Titus Andronicus (١٥٩٣) . وغلب التقليد ، وعرض رقصة الموت البغيضة ، فان تيتس يقتل ابنه ، وآخرين صهره أو زوج ابنته ، على المسرح ، وتغتصب عروس وراء الكواليس فتأتى إلى خشبة المسرح ، وقد قطعت يداها ، وقطع لسانها ، والدم ينزف من فمها . ثم يقطع أحد الخونة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابنى تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجلون شكسبير ليحملوا المشتركين فى التأليف جزءآ من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الخاطئة القاتلة بأن شكسبير لايكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدرا كبيرا منه .

وألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائد السونيت ، وربما كان الطاعون الذى تسبب فى إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، هو الذى تركه فى فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئا من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر. وفى (٣ : ١٥) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريوتسلى أرل سوثمبتون الثالث . وكان لودج قد اقتبسها من قصة أوفيد Metamorphoses ، واقتبسها شكسبير عن لودج ، وكان الارل شابا وسيامنغمسا فى الملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما تلمت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة فى هذه السنوات العجاف ، ولكن فى غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ — ٧٠٨) مما قل أن قرأت إنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيدة من استحسان عام ، وبهدية من سوثمبتون فأصدر فى ١٥٩٤ The Ravyshement of Lucrece حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر فى الشعر. وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٩٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونيت التى كانت أول ماثبت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريبا ، وقد نهلت كثيرا من معين بترارك من قصائد السونيت — الجمال العابر للمحبوبة وترددها وتقلباتها القاسية ، وتثاقل خطوات الزمن الذى يضيع سدى وغيرة الحبيب وظمؤه الى اتل ، وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقابا ونعوتآ منتحلة من كونستابل ودانيل . وواطسون — وغيرهم من شعراء السونيت الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

فى سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد فى ترتيب قصائد السونيت فى نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا فى أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الجد حبكتها الغامضة — حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » فى البلاط. وصدودها عنه ، وترحيبها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذاك الصديق ؛ وسهاد شكسبير اليائس وتفكيره فى التخلص من الحياة . ومن الجائز أن شكسبير ، وهو يمثل فى البلاط ، اختلس النظرات فى لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهر الأنظار ، ولكن ليس من المرجع أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خليلة أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة . فى الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهـد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوبه »(١٠) .

وفى ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . هـ . مع كل مايبشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى يبغى الخير ، فيما يعتزم من ترحال . « ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . « توماس ثورب » . ولكن من هو « و . هـ . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل فى عصره أو منذ ذلك العصر » . وكان هربرت فى عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبوب الفتى » . وغالباً ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر اليزابث أدباء لوطيين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لاتكمن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصقص أجنحة الخيال ، ولابد أن شكسبير ابتهج بما هيأ له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس ، فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندللو . وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى ، ونقلا عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المهتاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسب فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينهض لاهثا أو حابسا أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر فى عالم المسرح ، فى كل عام تقريبا : ففى ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم ردريجو لوبيز ، طبيب الملكة اليهودى ، بتهمة قبول رشوة ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت اليزابث طويلا فى التصديق على حكم الاعدام ، ولكن العامة فى لندن أخذوا جريمته قضية مسلما بها. واستعرت روح العداء للسامية فى الحانات(١١) . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية » (١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه فى مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك فى شخصية هزلية فى ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو فى إبراز كراهية مقرض النقود وجشعه ، ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة التى لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من أجل اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لايزالون يجادلون فيما إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنبا(١٢) ؟ وهنا ، فوق كل شىء ، أظهر شكسبير براعته فى أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية مثل هذا الشعر العاطفى الرومانتيكى ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك أن الجنس البشرى المنهوك يختص بأسخى جوائزه أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » هراء قوى عوض عنه مندلسون. ولم تنقـذ هيلينا رواية « Allis Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » فهى تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة » محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيما جدا . ورواية « ترويض النمرة » زاخرة بمرح صاخب بشكل لا يصدق ، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة .

---

(١) قارن Two Gentlemen of Verona : ٢ — ٣ · ٦ ، و Merry Widows of Windsor ١ — ٢ .

obeikandi.com

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال ؛ وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة ، ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن بجزئى " هنرى الرابع " (١٥٩٨/١٥٩٧) صعد الساحر العظيم ثانية إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء — فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال — فى نجاح كان يمكن أن يجعل سدنى يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج " هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسليهم فى وقت معاً ، ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويثيرهم بجعجعة أجنكورت ، ويبهجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف وأمرت منشئه (مؤلف الرواية) أن يحييه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام(١٣) . ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن تتم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات المرحات فى وندسور " كانت عملا مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم كونها صاخبة لأنها حافلة بالخشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف فى ذروة نشاطه وحيويته ، حتى ألقى به إلى النهر فى سلة غسيل . وقيل لنا إن الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشىء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ — ١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه ، ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج " روزاليند " (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح والهزل الجاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس ، مرحة رشيقة من حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو ويحفر اسم روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمراثى على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سعيد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجبت بها ملايين الشفاه : " تحت الشجرة الخضراء هب ؛ هب يا نسيم الشتاء ، " " فهناك كان عشيق وفتاته " . إن التدفق أو الإنتاج بأسره كان حماقة وعاطفة لذيذتين محبتين ، لا يمكن مباراته فى أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة المرة . معلنا أن " مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله " على خشبة المسرح ، وليس ثمة شىء محقق يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا(١٤) .

وهكذا أنذرنا شاعر آفون أن رواية " على هواك " كانت آخر روائع المرح والبهجة ، ومن بعدها ، حتى إشعار آخر ، عرض أن يسبر غور الحياة ليظهرنا على حقيقتها الدامية ، وهو الان يريد أن يفيض علينا من معين " الرويات المأسوية " ، ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

فى ١٥٧٩ عرض كتاب توماس نورث عن بلوتارك ذخيرة نفيسة من المسرحيات ، أخذمنها شكسبير ثلاثاً من " سير الحياة " وصاغها فى مسرحية " يوليوس قيصر " (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحيوية إلى حد أنه أخذ منها عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ماعمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ، ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتونى أمام جثمان قيصر كانت من ابتداع الشاعر نفسه . جاءت تحفة رائعة فى فن الخطابة والرقة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى أجازه لقيصر . وربما أثر فيه إعجابه بدوق سوثمبتون وإرل بمبروك ، وارل إسكس الشاب ؛ فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهددين بالخطر . ومن ثم يصبح بروتس محور الرواية . ولكنا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن عن الفساد ذى الرائحة الكريهة فى " الديمقراطية " التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلا إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية فى مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضى ليقف عاجزا بين يدى الحاضر الذى كثيرا مايعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفى كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة فى نفس الموضوع وتحداها . وكانت هملت قد أخرجت فى لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندرى كم أخذ من هذه « المأســـاة » المفقـــودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركى ساكسو جراماتيكوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهى ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبى فرنسى ألفه دى لورنس . وإنا ، ونحن نشك فى غير انفعال أو تذمر ، فى كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شيء من الحزن الشخصى — بالاضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذى شاع فى هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هاملت تحررا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونية ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها هزت مشاعر شاعرنا المرهف الحس ، الذى كان قد امتدح ، فى حرارة بالغة ، اسكس فى مقدمة الفصل الأخير من « هنرى الخامس » ، كما كان فى إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومهما يكن من أمر ، فان أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهى أدق فى حبكة الرواية ، وأعمق فى التفكير ، وأروع فى اللغة من سابقاتها ، ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة فى الأدب بأسره . إن إرادة هملت المذبذبة ، بل « عقله الملكى الممتاز » على الأغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر ، وتشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهدأ ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للراهبات ، بل إلى الجنون والموت . وفى النهاية تجىء مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصاب بلوثة .

وفى الوقت نفسه وجدت اليزابث ، هى الأخرى ، البلسم الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع فى إمتيازات فرقة شكسبير التى أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكيا كبيرا . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ — ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ماهى بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتنوا بخبث ياجو الدال على ذكائه ؛ ولكن فى تصوير مثل هذا الشر المحض الذى لاباعث عليه فى الانسان ؛ وقع شكسبير فى خطأ مارلو ؛ ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ؛ كان ينقصه هذا المزيج الفنى من العناصر التى تضفى الروح الإنسانية على هملت ولير وبروتس وأنطونى .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملا أشد رهبة فى الشر الذى لاتخف حدته . وكان شكسبير يستشهد بهولنشد فى الحقائق المطلقة ، ولكنه زاد فى عتامة القصة وكآبتها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته فى رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف مموث قد طور القصة ، ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد فى أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتمائه بابنته اكورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم فى جنون الملك وموته بخلعه من العرش كما أنه أضاف الإعماء الدامى الفظيع الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المرارة هى النغمة الأساسية السائدة فى الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لأنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، فى نظرته القاتمة ، ما هى إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أوبنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالجنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح . وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التى تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطونى وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أقل . وثمة شيء أنبل فى هزيمة أنطونى منه فى سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقاً واحتمالا فى افتتان الرومان بالملكة المصرية منه فى قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حمقاء ، وفى جبن كليوبطره فى الحرب ، وروعتها فى الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد فى القصة التى طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتلألىء الذى لايعرف الكلل . أما التشاؤم فى رواية « تيمون الأثينى » (١٦٠٨؟) فهو تشاؤم تهكمى ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل « كوريولانس » الناس على أنهم النتاج المتقلب الذليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيعهم ووضيعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك فى سيرة أنطونى قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قد أورده فى حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألفت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثمانى سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينيا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يختفون بين عشية وضحاها ، ينفض غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة فى غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بنى الإنسان (١٦) » وهو يتمنى لو « أن ألسبيادس» كان كلبا « حتى أكن لك شيئاً من الحب (١٧) » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذهبا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألذع هجاء . ولكن عندما تأتى العاهرات وبنات الهوى ينفحهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل .

لتنخر فى عظام الرجال الجوفاء ، واضربن على طنابيبهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن اللقب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس بألسنة حدادمن أجل طبيعتهم الشهوانية
وهولايصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمنها ، وأكسرن قصبتها تماما ،
ولتدعن دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر لجراح
ينقلوا عنكن الأمراض الموجعة . اصبن العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن (١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر يجعله يبدو غير حقيقى ، ولايمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ السخيف على الخطائين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمتاع الحياة الدنيا . إن مثل هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن شكسبير لابد ستعود إليه الابتسامة سريعاً .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تسنى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن حقامعرفة على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلافى لم النفس ؛ ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاحت له دراسته فى صباه أن يطالعه ، وكانت مراجعاته واشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتقان أو تعمق(*) ، وواضح أنه كان مقصورا على المترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيدMetamorphoses ووقع فى أخطاء صغيرة ، ما كان بيكون مثلا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسيوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو فى القرن الثالث ق . م . (١٩) وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس(٢٠) (القرن القرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على المام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض المامبالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على بوهيميا شاطئا على البحر(*) . وأرسل بالنبين من فيرونا إلى ميلان بحرا(٢٣) ، وبرسبيرو من ميلان فى قارب عابر المحيط(٢٤) . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة . ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكاتب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط فى رومه على عهد قيصر ، والبليارد فى مصر على عهد كليوبطره . وكتب « الملك جون» دون ذكر للعهد لأعظم (ماجنا كارتا) ، و « هنرى الثمن » دون التعرض للاصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من جديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الايجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية لانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك فى رأى شكسبير ساحرة داعرة. وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن التاريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، كثيرا

(*) انتقض بن جونسون على هذا فى أحاديثه مع درومند فى هوثورندل(٢١) ، ونقله شكسبير عن قصة لروبرت جرين ؛ وهو متخرج فى الجامعة ؛ فنحت حكم أرتوكار الثانى (١٢٥٣ — ٧٨) ملك بوهيما سلطانها إلى شواطىء الأدرياتيك(٢٢) .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا : وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التى أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التى انشغل بها هو ووالده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقى مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغنم تذهب بالأرواح لتحلق بعيدا عن أجسامها(٢٥) » ؟ وإنه ليذكر فى رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها فى عقد فى رواية « قصة الشتاء » ، ويكسو بها أوفيليا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلمح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النبات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التى سرعان ما افتتن بها بيكون . وكما فعل بيكون ، حفظ شكسبير فلك بطلميوس(٢٦) . وبدا فى بعض الأحيان (سونيت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان (٢٧) » : ولكن ادموند فى « الملك لير » وكاسياس فى « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ، ياعزيزى بروتس ، ليس فى نجومنا (فى طالعنا) بل فى أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء(٢٨) » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العارضة التى يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذى عاش لينكب على الكتب . وعرف أفظع آراء مكيافللى ، وأشار إلى رابيليه ، واقتبس عن مونتانى . ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفاتهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية(٢٩) مأخوذ من بحث مونتانى « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كاليبان (العبد الرقيق الذى كان يمتلكه برسبيرو فى رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتانى لأنه أضفى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند هملت ، وهل ينسب شىء منه إلى شكوك مونتانى اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية فى ١٦٠٢ ، أى قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتانى الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس فى كتاب الرجل الفرنسى

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الذم الشديد للحياة فى الملك لير ، كريولانوس ، تيمون ، ماكبث ، . إن شكسبير هو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات والأبيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب فى كل الأزمان أصالة وامتيازا وخلقا وإبداعا .

وتكمن الأصالة فى اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحى والدعابة وأشخاص الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغـات فى كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف لفظ ، بما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرصفة فى الشوارع، بالإضافة إلى ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, Burnet, Spurring . . . لقـد استساغ ألفاظا ، ونقب فى مختلف أركان اللغـة وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه فى حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا ذكر اسم زهرة ، فانه لابد يتابع حتى يسمى اثنى عشرة زهرة ، وإن الألفاظ نفسها ليفوح منها عبير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص فى رواياته كلمات متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب فى النحو والصرف تخريبا لطيفا ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ، ويقلب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل المفرد ، أو الفعل المفرد للفـاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذاك الوقت استخدام للنحو ولا الصرف فى الانجليزية ولا قواعد لهما . ولقد كتب شكسبير على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنيق المتميز الباروكى[٣٠] » (يتسم بالزخرفة والتعقيد والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون: فى عبارات متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض فى فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ، وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاخب والهراء تتشدق به أبغض الأفواه غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكى ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر فى نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلا على لسان فرديناند :

إن لديه فى مخه داراً لسك العبارات ،
وإن عباراته لتسلب الألباب
وكأنها الإيقاع الساحر .
ولكنى أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب(٣١)

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا(٣٢) ، تضييع وقت السلم سدى(٣٣) ، أريد أباً للفكر(٣٤) ، قل الحق وأخجل الشيطان(٣٥) ، يسكن الريح فى هذا الركن(٣٦) ؟ لا يستقر قرار للرأس الذى يحمل التاج(٣٧) . يطلى الزنبق(٣٨) ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة(٣٩) ، أى حمقى هؤلاء البشر المعرضون للفناء(٤٠) . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة ما يخدم غرضه(٤١) ، جنون منتصف الصيف(٤٢) طريق الحب الصادق ممتلىء بالأشواك(٤٣) ، ألبس قلبى على كمى (أحمل رأسى فوق كفى)(٤٤) ، فى كل بوصة ملك(٤٥) ، قدر الطاقة(٤٦) ، الإيجاز روح الفطنة(٤٧) ، . . وربما كان هذا تلميحاً لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيد منها « قد نرى الأشرعة تحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة(٤٨) » . كما أن هناك قطعاً بأكملها تكاد تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهار أوفيليا المضطربة ، أنطونى أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن هناك ذخيرة من الأغانى : « من هى سيلفيا(٤٩) » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على باب السماء(٥٠) » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عنى(٥١) » ، وربما حضر جمهور نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

" إن الخيال ليتمثل المجنون والعاشق والشاعر منضمين فى صورة واحدة(٥٢) "، واجتمع فى شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليخلق فى كل رواية عالما ، ولا يقنع بهذا، فيملأ الامبرطورايات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبيانى ، وجن سريع العدو ، وسحرة مرعبين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه الذى يفكر با صور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبترارك) كان يمكنه أن يجعل روميو ، وقد نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقداً ، لأن قططها وكلابها قد تحدق النظر إلى جولييت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان يستطيع أن يجعل الدوق المطرود فى رواية " على هواك " ، يأسف لأنه لابد أن يعيش على صيد حيوانات هى فى الغالب أجمل من الإنسان ؟ لاعجب أن روحاً قوية بكل معانى الكلمة ، لابد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا فى بعض الأحيان أنه يشيع فى النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة فى الفن المسرحى إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتبادلون النظرات الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من " أدوات " المسرح فى عهد اليزابث وآلاته . ودرس رفاقه فى التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية . واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغييرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فاذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة لير ؟ فكل القصص تقريباً تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال ، وهويات خفية ، ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن يجدر بالفنان أن يحصر فى أقل الحدود " البناء القائم على غير أساس " لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية تناقضات الزمن والخلق(٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذى فكر فى سرعة الإنتاج . لا فى النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمر دون أن يلحظها أحد من الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والذوق الحديث لتنكر العنف الذى يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلى المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين فى عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المأساة بالترويح الفكاهى . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفى مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المأساة والملهاة على التوالى ، ولكنهما لم تتكاملا تكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق فى هملت ، وتبدو الدعابة فى بعض الأحيان بذيئة أكثر مما ينبغى، ولابد أن سوفوكليس وراسين كانا يشمئزان من النكات التى تدور حول غازات بطن الانسان(٥٤) أو تبول الخيل(٥٥) . وإن نكتة جنسية لهى أكثر استساغة لدى الذوق الحديث . ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشى للجنس البشرى عند سويفت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين فى صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه فى أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، فى خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحى . إن ريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوستر وبروتس وأنطونى ليبعثون من زوايا النسيان فى التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك فى المسرحية اليونانية ، ولا حتى فى بلزاك ، أشخاص خياليون أسبغ عليهم مثل هذه الشخصية المتماسكة والقوة والحيوية . وكانت أصدق الشخصيات التى خلقها هى تلك التى تبدو فقط متناقضة ؛ بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات فى بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، وياجو مجرد كراهية . وتبدو بعض النساء فى مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجينة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديدمونة ، ميراندا وهرميون —

ولأنهن يفقدن الحقيقة والواقع ؛ ثم فى بعض الفترات ، تبعثهن بضع كلمات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ؛ حين يبلغها هملت أنه لم يكن يحبها فى يوم من الأيام ، تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن فى بساطة حزينة مؤثرة : « كنت أنا المخدوعة أكثر » . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وتفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق للتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة المتماسكة — كل هذه تأتى جميعها معاً لتعمر المدينة الحية بالأموات أو الأنفس الخيالية ، أو فى مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر فى هملت وليرالى يلسوف . وتصبح مسرحياته أدوات متألقة للفكر .

٥ — فلسفة شكسبير

« ألك أية فلسفة ، أيها الراعى[٥٦] ؟ » هكذا يسأل تتشستون Touchstone الراعى كورين (فى رواية « على هواك ») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجيب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفى[٥٧] . وإنا لنقبل هذا الحكم ، كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميتاً فيزيقاً (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه ، أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن فى السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به فى فلسفتك[٥٨] . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم ، ويشك فى أن واحداً منهم احتمل يوماً ألما فى أسنانه صابراً متجلداً[٥٩] . وهو يسخر من المنطق ، ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل ؛ ولكنه يشعر بها ويبصر بها بقوة تزرى بافتراضاتنا أو تعمقها . وإنه ليقف بعيداً ، ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون فى غمرات الزمان . وإنه ليخفى نفسه فى شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه ؛ ويحذر بنا أن نحذر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه فى شىء من التوكيد اثنان على الأقل من مخلوقاته (شخوص مسرحياته) .

وإنه ، لأول وهلة ، عالم نفسانى ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكرى عقلى ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التى تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس واقعيا سطحيا ، فان الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، فى الحياة ، كما يحدث فى رواياته ، ولكننا فى النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقترب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانسانى ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهور « أن العقل يقود الارادة(٦٠) وأنه ليعتنق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العـــذرى ، لسان أوفيليا المخبولة التى تتضور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكى فى دراسة ماكبث ونصفه « الردىء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة ـــ الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لا للكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك ـــ نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من بيكون ، مثلما أن مونتانى أعمق من ديكارت ، فليس الشكل هو الذى يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية فى الأخلاق « ليس ثمة شىء حسن أو ردىء ، ولكن التفكير هو الذى يجعله كذلك(٦١) » . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن(٦٢) . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) المحير فى أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها(٦٣) » . وإنه ليعرف نظرية ثراسيماخوس (فيلسوف سفسطائى أغريقى فى القرن الخامس ق . م) فى الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس إلا كلمة يستخدمها ، الجبناء ابتكرت ، أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب فى قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتـــولة هى ضميرنا ، ولتكن أسيافنا قانوننا(٦٤) » . أما ريتشارد الثانى فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب (٦٥) » . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب نتيشه باءا بخاتمة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة ، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و« سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس(٦٦) » . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقيين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيللس(٦٧) ، ومهما يكن من أمر ، فان العقل وحده لايكفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقيين :

على المرء أن يحتمل
ذهابه هناك قدر احتماله قدومه هنا
والنضج هو كل شىء(٦٨) .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادمنا قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولايسلم بتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها لمالفوليو : " اذهب وهز أذنيك(٦٩) " أى " أنت جحش " . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المجنون أنشودة مرحة صاخبة للاتصال الجنسى(٧٠) .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى " بركليز " (١٦٠٩ ؟) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن أغنياءنا البخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوت ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتهمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لايفتأون يفغرون أفواههم حتى يبتلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شىء(٧١) » .

ويحلم جنزالو فى " العاصفة " بشيوعية فوضوية " يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة ملكا مشاعا " ، ولايكون فيها قوانين ولاقضاة أو حكام ولا عمال

ولاحرب[٧٢] . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » — يوتوبيا — لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولابد ، فى ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته فى هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، فى تسامح لابد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس فى إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم[٧٣] . ولقد عمد شكسبير وأبناؤه وفقا للطقوس الانجليكانية[٧٤] . وبعض أبياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعوذة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

. . . لن يفرض قسيس إيطالى
دفع العشور أو يقرع الناقوس فى أرضنا ،
ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،
فستكون لنا السيادة العظمى فى وجود الله العلى العظيم ،
حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،
هكذا أنبئوا البابا ، مع كل الاحترام
له ولسلطانه المغتصب[٧٥] .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير فى جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمير (أسقف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح اليزابث — وكلهم كبار مهندسى الاصلاح الدينى فى انجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاثوليكية ، مثلما جاء فى تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تعاطف[٧٦] ، ولكن الشخصية الإخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت فى أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باق فى الروايات المأساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء
يقتلونه من أجل اللهو واللعب(٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عـــدول ، وإنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا(٧٨) » ، كما يؤكد هملت إيمانه « بالله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء (٧٩) .. » وعلى الرغم من الايمان الذى يصطرع فى النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك فى أعظم روايات شكسبير سحابة من عدم الايمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود فى رواية على هواك .) لايرى فى « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطىء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » فى رواية الملك جون :

الحياة مملة مثل حكاية تروى مرتين
فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان(٨٠) .

وفى ذم هملت للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة ملأى بالأعشاب الضارة .
التى تنمو وتتكاثر ، وكل شىء يحدث ويكبر فى الطبيعة ،
نمتلكه فحسب (٨١) .

وفى ماكبث :

انطفئى ، انطفئى أيتها الذبالة القصيرة !
ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هى أشبه بممثل مسكين يختال ويضيع
وقته فوق المسرح ، ثم لايعـــود يسمع له صوت ، إنهـــا حكاية
يرويها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،
ولكنها لاتعنى شيئا(٨٢) .

وهل ثمة شىء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو — بعد أن وصف لجسيكا موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود فى الأنفس الخالدة .(٨٣). وتخيل كلوديو فى رواية **Measure For Measure** حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم فى جحيم دانتى أو فى مثوى الأموات :

آه ولكنا نموت ، ونذهب إلى حيث لاندرى ،
ونرقد فى حفرة باردة بعيدين عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرحة فى بحار من نار ، أو تسكن
فى صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن فى الرياح غير المنظورة
التى تهب فى عنف لايهدأ حول
العالم المتدلى . . . . أن هذا شىء بالغ الرهبة(٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة(٨٥) . ولكن مناجاته لاتؤكد أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت فى النسخة القديمة « فلتستقبل السماء نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هى السكون (الموت) .

ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ، ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل فلسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء فى الروايات التى توجت أعماله ، كان اعترافا حائرا مترددا بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأوغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ، فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونريل وجدت كورديليا ، وإلى جانب ادموند وجد ادجار أو كنت ، وحتى فى هملت ، يهب نسيم عليل من وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكآبة . وبعد أن يغادر الممثل والكاتب المسرحي المنهوك لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلوى الأبوية فى بيته فى ستراتفورد ، فلسوف يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ ــ الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيأت له النجاح والهتاف باسمه والثروة . وثمة أكثر من مائتى إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، فى الأدب الباقى من عصره . وفى ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ، سدنى ، سبنسر ، دانيل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين فى إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين(٨٦). وفى نفس العام أعلن ريتشار بارنفيلد ــ وهو شاعر منافس ــ أن أعمال شكسبير (التى لم يكن أفضلها قد ظهر بعد)قد وضعت اسمه فى « سجل الشهرة الخالد(٨٧)» وكان محبوبا مألوفا حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش فى التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، فى المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا فى عصر بعينه ، بل فى كل العصور » وفى الأوراق التى خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذى يحبه الانسان حبا أعمى(٨٨) » .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا فى اجتماعات رجال الأدب فى حانة مرميد فى شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذى كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذى رأيناه؟

فى مرميد ! سمعنا كلاما يفيض

رقة ، ويتقد حرارة

وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى

قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره فى نكتة ،

معتزماً أن يقضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البليدة(٨٩) .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى انجلترا (١٦٦٢) :
كم كانت الحرب الفكرية سجالا بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ،
وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو
كالأولى) ، علا كعبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيد الأركان ، ولكنه يطىء
فى أداء عمله . أما شكسبير . . . فهو أقل فى البنيان ولكنه أخف حين يمخر عباب
الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من
كل ريح ، بفضل سرعة بديهته وابتكاره(٩٠) .

وتابع أو يرى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير
و « بديهته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلا رشيقاً وسيما لطيف
المعشر(٩١) » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته
فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى
حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف
حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنهما لا تبديان أية إشارة إلى الشرر الذى يتقد
فى الروايات . وربما ضللتنا الروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة
عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ،
وشفيرى الكآبة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة
بالإثم ، ذو طبيعة صريحة منطلقة(٩٢) » ، يستمتع بالحياة ولا يأبه بالنسل ، تبدو عليه
مسحة من الروح العملية التى لا تلائم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد
فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثريا إلى حد يسمح
له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وستة
آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبته فى مثل هذه المشروعات من
عائداته بوصفه ممثلا وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره
بين ٢٠٠(٩٣) و ٦٠٠(٩٤) جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصلح لأنه يفسر لنا
شراءه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام (٩٥) » . وتوقف أحيانا على الطريق فى أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدير نزلا ، وكان سير وليم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٣٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير مقصودة لتخلف شكسبير فى هذا النزل (٩٦) . وفى ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحى « البيت الجديد » New Place بستين جنيها ، وكان ثانى أكبر بيت فى ستراتفورد ، ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه فى ١٦٠١ تاركا له منزلين فى شارع هملى فى ستراتفورد، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من المدينة ، بثمن قدره ٣٢٠ جنيها ، ويحتمل أنه أجرهذه الأرض لمستأجرين مزارعين وفى ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنيها أسهما فى العشور الكنسية المرتقبة فى ستراتفورد وثلاث دوائر أخرى . وفى إثناء انشغاله بكتابة أعظم رواياته فى لندن ، كان معروفا فى ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساسا ، مشغول فى الغالب بالتقاضى من أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفى فى ١٥٩٧. وفى ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزاتا من جول هول . وهو طبيب مشهور فى ستراتفورد، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جداً، ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالى ١٦١٠ هجر لندن واعتزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الجديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك «Cymberline» (١٦٠٩ ؟) و« قصة الشتاء (١٦١٠ ؟) و« العاصفة» (١٦١١؟). ولم يكن لاثنتين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن شكسبير كان لايزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التى تكشف منذ البدايه عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تألمت مع هؤلاء الذين رأيتهم يتألمون (٩٧) » . وهنا كاليبان الذى يرد به شكسبير على روسو . وفيها أيضاً بوسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذى يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه المرحة وداعاً حنونا ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، فى الفصاحة التى لم يعتورها أى وهن فى أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصخبنا . إن ممثلينا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
ذابت فى الهواء ، فى الهواء الرقيق ،
ومثل كيان هذه الرؤيا الواهن القائم على غير أساس
تكون الأبراج التى يتوجها السحاب والقصور الشامخة
والمعابد الرهيبة ، والأرض الواسعة نفسها ،
نعم ، وكل مانرثه سوف يأوب ويفنى ،
كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافتة ،
لاتتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
من نفس المادة التى تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هى الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك فالرواية هى شكسبير يسترخى ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشدو بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suckl., Full fathom five » — وعلى الرغم من كل المعترضين واعتراضاتهم ، فان الشاعر الذى تقدمت به السن هو الذى يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر منى
أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
بفضل فنى الفعال . ولكن هذا السحر الشاق
أعد بأن أتخلى عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
وفى مكان أعمق من أن ترن فيه رصاصة الفادن(*)
سوف أغرق كتابى (٩٩) .

وربما كان شكسبير أيضا ، الذى ابتهج ببناته وحفيده هو الذى صاح على لسان ميراندا :

(*) الفادن – أداة مؤلفة من خيط فى طرفه قطعة رصاص . يسبر بها غور المياه .

عجباً !
كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !
ما أجمل بنى الإنسان ! أيتها الدنيا الجديدة الرائعة
التى يعيش فيها مثل هؤلاء الناس[١٠٠] !

وفى ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كوينى . وفى ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق التمثيل، و «بسريره الثانى » لزوجته التى كان قد هجرها، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواى سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ — ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى جلسة مرحة ، ويبدو انهم أسرفوا فى الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك[١٠١]* » . وحم القضاء فى ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، ووروى جثمانه التراب تحت الهيكل فى كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقرب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التى لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد الذكرى، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل
أن تحفر التراب الذى يحيط بهذا المكان ،
وليبارك الله الرجل الذى يحافظ على هذه الأحجار ،
ولعنة الله على من ينقل عظامى .

٧ — بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التى كثيراً ما ظهرت فى حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، فى قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف فى النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نبذ هذه الرواية — سيرا . ك . تشمبرز فى كتاب " وليم شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

obeikandl.com

وأثارت هذه القرصنةوالانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرا فى ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهرين ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء فى تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للراقد تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم ماثل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنيه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ؛ وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أغلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففى ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد البيوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ — ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفى الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية هملت . ويمتدح دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا .. وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن « كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق ثقيل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان[١٠٢] . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايات القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديلها بمعرفة دريدن أو أتواى Otway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر بوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكمبل، والممثلة ساره سيدونز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفا محبوبا بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفى ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما ينافى الحشمة والفضيلة ، مما لا يمكن قراءته جهرا فى الأسرة » . وفى أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته مبالغات كولردج وهازلت ودى كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبلى :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار ومالبرب وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقى والذوق المهذب والتحكم العقلانى . وكانت فرنسا قد أقرت ، فى أعمال راسين القواعد الكلاسيكية فى المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسيل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من انجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقدير لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض اللآلىء التى عثرت عليها بين الأكداس الهائلة(١٠٣) » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير فى مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب »(١٠٤) . وفى القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعا تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب . . . . . لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمو دون أن يسعى إليها (١٠٥) » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فان ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذى أسبغتـــه على راســين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد فى ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحى محلى . فإن الكاتب المسرحى الألمـــانى العظيم الأول جوتهلد لسنج ، هو الذى أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده فى هـــذا هردر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت فى « قاعة ولهلم » (١٧٩٦)[١٠٦] . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألمانى ، وانتزع العلماء الإلمان من انجلترا مقام الصدارة ، فى دراسة حياة شكسبير وروإياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعى أو المقـــارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبـــوا وترعرعوا وهم ينشقون عبير شكسبير . فان الذى يعرف لغة الإغريق على عهد بريكليز وعقيدتهم وفنهم وفلسفتهم ، هو وحده الذى يحس بالمسرحية المأساوية الديونيسية وسموها الذى لا مثيـــل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوى فى بنيانها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر فى القول والفعـــل ، وبالشرح الذى يهز النفوس فى ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة النبيلة فى مشـاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره فى الكون . كما أن الذى يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسى ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمكنه وحده أن يحس ، فى روايات كورنى وراســين — لامجرد عظمـة الشعر وموسيقاه فحسب — بل يحس كذلك بالجهد البطولى للعقل فى إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكة العسيرة ، وتركيز المسرحية فى بضع ساعات تشـــد فيها الأعصاب ، لتلخيص حيـــاة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذى يعرف اللغـــة الانجليزية ، فى كمالهـــا أيام اليزابث ، ويتعمق ويجد لذة واستمتاعا فى البلاغة والأغانى والتراشق فى عهد اليزابث ، ولا يغل المسرح عن أن يعكس صورة الطبيعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يهيء لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا وقالبا ؛ ولكن مثل هذا الرجل لا بد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز من الأعماق وهو يتابع ويسير غور الفكر فيها ، تلك هى الفترات الثلاث التى تعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لتراثنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر اليزابث .

obeikandl.com